الحاسة الصوفية

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

يدرك الانسان الاشياء بطريق الحواس ، وهى الخمس المعروفة منذ قديم الزمان ، وهى : البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، وقد قيل ان من فقد حسا ما فقد ما يقابله من علم ، ألم ترى الى الطفل الذى قال لأمه :

يا أم ما شكل السماء وما الضياء وما القمر .. ؟

لأنه كان طفلا ولد أعمى فلا يمكن له أن يعرف ما الأشكال وما الألوان وفى الانسان خلاف هذه الحواس التى بها يعرف الأشياء المحسوسة ، وهى الطريق الى المعرفة الحسية ، العقل الذى به يدرك ان المعقولات والناس بوجه عام فى حياتهم اليومية العادية ، وفى أمور معاشهم ، وفى سلوكهم انما يعتمدون على هذين الطريقين ، وهما الطريق الحسى ، والطريق العقلى وانهما لعامان فى جميع البشر .

وينبغى أن نلاحظ ان الحيوان أيضا يسلك فى حياته معتمدا على حواسه .. وقد دلت الابحاث الحديثة فى علم النفس على أن بعض الحيوانات الراقية موهوبة بشىء من العقل والذكاء ، لا كما كان يعتقد فى الزمن القديم من انها لا عقل لها ، وليس هذا هو موضوع كلامنا ، وانما الذى نريد أن نستخلصه ، وأن ننبه عليه ، هو ان العلم بالاشياء انما يكون عند وجود الطرق الملائمة لها ، فاذا فقدت هذه الطرق ، لم يتيسر هذا العلم ، كما ذكرنا من أن الأعمى الذى فقد بصره فلن يعرف الأشكال والالوان كما أن هناك فى هذا العالم أشياء كثيرة جدا حواسنا قاصرة عن العلم بها وقد ابتدع العلم الحديث طرقا توصل الى معرفتها ، مثل « الرادار » أى العيون الصناعية والآذان الصناعية ، التى تدرك من الأصوات ، ومن أطياف الضوء ما لا تدركه عين الانسان الطبيعية أو أذنيه .

فاذا كان الامر كذلك ، ففى هذا العالم أمور لا تدرك بهذه الحواس الظاهرة ولا بما يتبعها من معرفة عقلية وانما تدرك بطريق آخر ، بحاسة اخرى ، هى تلك التى نسميها « الحاسة الصوفية » .

وقبل أن نوضح ما هذه الحاسة وما طبيعتها وما الموضوع الذى تدركه نحب أن نشير الى مباحث مماثلة فى علم النفس الحديث أثبتت وجود ما يسمى « بالحاسة السادسة » فى الانسان والحيوان على حد سواء ، انها حاسة غامضة تدرك الاشياء الغامضة مثل : الخطر الداهم الذى يقبل على الحيوان أو الانسان . تجد حيوانا يبتعد عن منطقة معينة ويأبى أن يقبل عليها لأنه يحس بهذا الاحساس الغامض بأن هناك خطرا سوف يحدق به ، وكذلك فى الانسان قد تجد تاجرا يقبل على صفقة وينفر من أخرى ولا يخيب حدسه ، فكيف عرف ذلك ؟ .. وكيف خرق حجب المستقبل البعيد ؟ .. انها « الحاسة السادسة » وهذه أيضا لن نخوض فى أمرها لأنها ليست موضوع كلامنا ، وانما أشرنا اليها تمهيدا للقول فى « الحاسة الصوفية » .

موضوع الحاسة الصوفية ، هو ادراك هذه الحقيقة الغيبية التى تجل عن الوصف ، والتى نسميها « **الله** » وليس الله من قبيل الاجسام المحسوسة حتى يدرك بالبصر ، أو السمع ، وقد قال جل شأنه فى الكتاب العزيز « **لا تدركه الأبصار** » وقال تعالى : « **ليس كمثله شىء** » فالله موجود ، ويمكن ادراكه بطرق كثيرة فى هذه الحياة الدنيا ليس منها الطريق الحسى بطبيعة الحال ، ولكن قد يكون منها الطريق العقلى من قبيل الاستدلال البرهانى من وجود هذه الكائنات على وجود الصانع ، ولذلك أمرنا الله فى القرآن الكريم أن نتدبر فى خلقه كى نتأدى من هذا النظر والاعتبار الى وجود الخالق الأعظم ، وهذا الطريق ملائم لكافة البشر .

ولكن هناك طريق آخر ، أقرب وأوثق ، يصل بنا مباشرة الى ادراك هذه الحقيقة الالهية المهيمنة على جميع الكائنات والقريبة من كل انسان ، كما جاء فى الكتاب الكريم : « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان** » هذا الطريق هو الطريق الصوفى ، وهذا هو منشأ الطرق الصوفية ، نعنى الطريق الذى يوصلنا الى معرفة الله ، وهو خلاف الطريق الحسى وخلاف الطريق العقلى ، اذ يعتمد على هذه الحاسة الباطنة التى نسميها « بالحاسة الصوفية » وموضوعها : ادراك الله سبحانه ، أى هذه الحقيقة الالهية السارية فى هذا الكون الذى خلقه الله ، ولا يزال يمده بعونه ورحمته ولطفه .

ولم ينكر القدماء ولا المحدثون وجود هذه الموهبة أو القوة ، أو الملكة ، ولكنهم قالوا : انها ليست عامة فى كافة البشر ، يمتاز بها قلة قليلة من أولياء الله الصالحين ، الذين وهبهم الله ، أو اختصهم بهذه الحاسة ، وهى فطرية فى هذا النوع من الناس لا تكتسب ولا توجد فى كل حين ، فقد تتفتح هذه الحاسة فيحدث ما يسمى بالتجلى ، وقد تضمر أو تموت فلا يعود صاحبها يستفيد منها ، ولكن جلاء هذه الحاسة هو باتباع طرق فى الحياة اساسها أماتة الشهوات ، من الصوم والزهد ، والابتعاد عن الملذات الدنيوية الحسية الشهوانية ، حتى تصفو النفس، وتستعد لقبول - ان صح هذا التعبير - هذه الاشعاعات الالهية ، وقد قلنا ان القدماء من الفلاسفة لم ينكروا هذا الطريق الصوفى ونحن ننقل اليك عن ابن الرشيد الفيلسوف الذى عارض الصوفية معارضة شديدة ، وكان من أتباع أرسطو المخلصين ، ما قاله فى كتابه « الكشف عن مناهج الأدلة » قال :

« وأما الصوفية فطرقهم فى النظر ليست طرقا نظرية ، أعنى مركبة من مقدمات وأقيسة ، وانما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شئ يلقى فى النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية واقبالها بالفكرة على المطلوب ، ويحتجون لتصحيح هذا بظواهر من الشرع كثيرة مثل قوله تعالى : « **واتقوا الله ويعلمكم الله** » ومثل قوله تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** » ومثل قوله : « **ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا** » الى أشباه ذلك كثيرة يظن انها عاضدة لهذا المعنى ، ونحن نقول : ان هذه الطريقة ، وان سلمنا وجودها فانها ليست عامة للناس » .

فهذا رأى أحد القدماء ، الذى سلم بوجود هذه الطريقة أو هذا الطريق ، ولم ينكره ، الا أنه ليس عاما فى كافة البشر ، وهذا صحيح اذ الواقع المشاهد هو أن الصوفى على الحقيقة أو الصوفى الحق نادر ولذلك نشأت الطرق الصوفية من هذا السبيل حين يعرف عن شخص انه موهوب بهذه الهبة ، يلتف حوله جماعة آخرون قد يبلغون الآلاف يتصلون به لتسرى هذه المعرفة التى وصلت اليه عن هذه الحاسة الصوفية فيهم ، كما يسرى المغناطيس فى كل حديد يلمسه .

ولكن الجديد فى الموضوع هو اخضاع هذا الفريق من الناس للبحث العلمى ، أى للمشاهدة الدقيقة التى تنطبق عليها الشروط العلمية ، وهذا

شيء مع الأسف الشديد لم يتجه اليه أحد ما فى الشرق ، ولو أن كثيرين من علماء الغرب شرعوا يبحثون هذه الظاهرة النفسية بحثا علميا فيما يسمونه « علم النفس الدينى » ٠

ولعلك تعرف هذه المباحث المنتشرة فى أوربا والتى تسمى « بالمباحث الروحية » فليس هذا هو بالضبط ما نعنيه بالحاسة الصوفية ولكنه شيء شبيه بذلك ، لأن أولئك الذين يزعمون أنهم يحضرون الأرواح يتصلون كما يقولون بالأرواح السابحة فى الفضاء وعن طريقها يستطلعون كثيرا من الغيب ، ولا أود أن أخوض فى أمر تحضير الأرواح لأننى لم أحضر أى جلسة من جلساتها ولا أؤمن بشيء الا اذا شاهدته شخصيا ، ولكنى أحسب انه ان صح ما يزعمونه فهؤلاء الوسطاء انما هم قوم قد وهبوا هذه الحاسة الغيبية ، ولكنهم بدلا من أن يتجهوا بها الاتجاه السليم ، نعنى الى المعرفة المباشرة بالله ، التمسوا الأرواح وسطاء الى تلك الحقيقة العليا مع ان الله سبحانه وتعالى لم يبخل على عباده الصالحين باستجابة دعائهم اذا دعوه بالطريق المرسوم فى الشرع والمبين فى الكتاب العزيز ، نعنى طريق التقوى والصلاح والذكر ، قال تعالى : « **ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** » وقال أيضا : « **الا بذكر الله تطمئن القلوب** » ٠٠

وذكر الله ، الذكر الصحيح ، يكون باتجاه القلب وصفاء النفس وتفتح هذه الحاسة لاستقبال هذا الشعور الكونى الالهى ٠٠

أحمد فؤاد الاهوانى

* * *